بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه..

أما بعد: فهذه الصحائف التى بين يديك - أخي القارئ - تلقى شعاعًا من ضوء على أحد عمالقة الفكر والتجديد فى تراثنا الإسلامى، إنها عبقرية فذة، أنبتتها تربة الحضارة الإسلامية الخصبة، التى طالما هيأت لأبناء الفقراء والكادحين أن يرتقوا شوامخ القمم بمواهبهم وكفاحهم، وأن يفرضوا أنفسهم على الزمن، ويصغى لهم سمع التاريخ.

فمن كان يظن أن ذلك الصبى الذى كان يكسب أبوه عيشه من مغزله، والذى لم يدع له من المال ما يكفيه مدة الصبا، حتى اضطر أن يدخل هو وشقيقه إحدى المدارس التى تتكفل بإيواء طلابها وإطعامهم والنفقة عليهم، من كان يظن أن ذلك الغلام سيصبح يومًا حجة الإسلام، وعلم الأعلام، وأن الشرق والغرب سينتفعان به ويخلدان أثره؟

obeikandi.com

إنه الغزّالي[1]، الذى أثر فى الفكر الإسلامى، وفى الحياة الإسلامية، تأثيراً منقطع النظير، من خلال عطائه الفكرى، وعطائه الروحى، ومن خلال قصة كفاحه فى سبيل الوصول إلى الحقيقة واليقين، والسعادة الروحية، التى هى عنده غاية الغايات.

أجل إنه الغزالى، الرجل الذى ملأ الدنيا وشغل الناس، فى حياته وبعد وفاته، واختلف فيه السابقون، كما اختلف فيه اللاحقون والمعاصرون.

فمن مبالغ فى الإعجاب به، والثناء عليه.. ومن مسرف فى الاتهام له، والتحامل عليه.

ومن معتدل بين هؤلاء وهؤلاء، يعطى الرجل حقه، ويمدحه بما هو أهله، وينقده فيما يرى أنه قصر أو أخطأ فيه، والعصمة لمن عصمه الله.

وجدنا من السابقين من يعظم كتبه، حتى قال من قال: كاد (الإحياء) يكون قرآناً!

---

(١) الغزالى - بتشديد الزاى - هو المشهور، فهو منسوب إلى حرفة (الغزل) وهى مهنة أبيه، على عادة أهل خراسان، حيث يقولون: العطارى والخبازى نسبة إلى العطار والخباز، وقيل: بتخفيف الزاى، نسبة إلى (غزالة) قرية من قرى طوس.

ووجدنا فى مقابله من يقول: إنه إحياء لدينه هو، وليس إحياء لدين المسلمين!

فلا عجب، أن رأينا من تقرب إلى الله بإحراق كتبه، ومن تقرب إلى الله بنشرها وتعميمها!

ولا غرو، فالرجل خاصم فئات كثيرة، ألبها جميعًا ضده، وهاج عداوتها له.

فقد هاجم الفلاسفة، وفضح الباطنية، وندد بالحشوية، وعاب المقلدين وانتقد المتكلمين، ولام الفقهاء، وحمل على العلماء الذين يلتمسون الدنيا بالدين، وسماهم (علماء الدنيا)، كما حمل على علماء (الظاهر) من الحَرْفِيِّين الذين حجبهم القشر عن اللباب، وكشف اللثام عن كثير من ظواهر التدين المغشوش لدى طوائف شتى من المجتمع.

كما كانت عنده – باعتباره بشراً غير معصوم – نقاط ضعف، أخذها عليه منتقدوه، لعل أبرزها قلة محصوله فى علم الحديث، وهو ما اعترف به، وتسليمه الكامل بمناهج الصوفية وأفكارهم، دون أن يحاكمها إلى قانون الفقه الذى برع فيه وفى أصوله.

obeikandi.com

وقديمًا قالوا: من ألّف فقد استهدف[1]، فكيف برجل كالغزالى، كان غزير التأليف، ثر العطاء، خصب الإنتاج، متنوع القدرات، متعدد المجالات، مع حرية فى التفكير، وجراءة فى التعبير؟

ثم هو يتعرض لتحقيق مسائل شائكة، والبْحث فى قضايا عويصة، هى مزلة أقدام، ومضلة أفهام، اعتركت فيها العقول، أو اضطربت فيها النقول، واختصمت فيها الفرق والمذاهب، وتباينت فيها الاتجاهات والمشارب، وغرق فِي بحرها الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون، و﴿ **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾ [الروم: ٣٢]

ولا غرو أن تباينت فيه الأقوال، ما بين معظم له كل التعظيم، ومهاجم له أعنف الهجوم، شأن كثير من العظماء فى التاريخ.

هذا عن المتقدمين.

وأما المعاصرون فهم مختلفون فيه أيضًا، تبعًا للمدارس الدينية والتيارات الفكرية التى ينتمون إليها.

---

(١) استهدف: أى صار هدفًا لغيره، فالسين والتاء هنا للصيرورة، والفعل لازم، وليس متعديًا، كما يستعمله كثيرون فى عصرنا، يقولون: استهدف كذا، يعنون: قصد إليه، وهو خطأ شائع.

فالمدرسة الأشعرية التقليدية التى ينتمى إليها معظم الأقطار الإسلامية تعظمه غاية التعظيم.

وكذلك المدرسة الصوفية بمختلف طرقها تضعه فى مرتبة الصديقين.

وأما المدرسة السلفية التى تخاصم الأشعرية، وتعادى الصوفية، فلها موقف آخر من الغزالى، فمنهم من يعترف بفضله، وينقده برفق واعتدال، ومنهم من يرسل عليه وعلى كتبه كلها شواظًا من نار.

وهذا إن دل على شىء، فإنما يدل على عظمة الرجل، وإبداعه، وخصوبة إنتاجه، وسعة آفاقه، وتنوع عطائه، شأن كثير من العظماء الذين يجنح كثير من الناس فيهم، إما إلى إفراط، وإما إلى تفريط.

ورضى الله عن على بن أبى طالب الذى قال عن نفسه: هلك فىّ رجلان: محب مغالٍ، ومبغض ضالٍ!

وعلى كل حال، فإننا نجد المعجبين به، والمثنين عليه، أكثر عددًا وأعز نفرًا من الطاعنين عليه.

قال فيه الإمام محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر المعروف: إنه جملة رجال فى رجل واحد!

obeikandl.com

وذكره الإمام المودودى ضمن الأعلام المعدودين الذين كان لهم دور بارز فى إحياء الدين وتجديده، وعدد مجالات تجديده، ونوه بأثره فى كل منها.

ويقول العلامة أبو الحسن الندوى: الغزالى من نوابغ الإسلام وعقوله الكبيرة، ومن كبار قادة الفكر الإسلامى، ورجال الإصلاح والتجديد، الذين لهم فضل كبير فى بعث الروح الدينية، وإيقاظ الفكر الإسلامى، ومهما قيل فيه وقيل عنه، فإن إخلاصه أسمى من أن يشك فيه.

ورفعه شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود إلى الذروة فى العطاء الفكرى وفى الارتقاء الروحى، معا.

ويراه العلامة أبو زهرة: فى أصول الفقه فيلسوفًا بين الفقهاء، وفى فروعه، محققًا يتبع الدليل، ولا يتبع الأشخاص، وهو فى الفقه أبين أثرًا منه فى الكلام والفلسفة.

أما الأستاذ عباس العقاد، فيعتبره - قبل أن يكون فقيهًا ومتكلمًا وصوفيًا - الفيلسوف الذى اكتملت له كل أدوات الفلسفة، من القدرة على التجرد، والقدرة على التجريد.

ويقول عنه الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى: إنه مؤسس علم النفس الإسلامى.

obeikandl.com

ويصفه الدكتور زكى نجيب محمود بأنه (العملاق العظيم)، ويلخص موقفه بعد فترة الشك فى هذه العبارة : أنا أريد . . إذن أنا إنسان!

والدكتور سليمان دنيا ينعته بأنه الشخصية الفذة التى حيرت الكاتبين والمحللين.

والدكتور أبو ريدة يقول عنه : من أكبر مفكرى الإسلام، ولعله أقربهم إلى الابتكار، وهو بطل من أبطال الإسلام الخالدين، الذين ناضلوا عنه . .

والدكتور أبو ريان يرى أنه الشخصية التى هيأتها الأقدار للقيام بدور المواجهة الجذرية والحاسمة لتآمر الباطنية، ودعاوى الفلاسفة وأصحاب المناهج العقلية المعارضة للعقيدة .

هذا إلى جوار ما قاله عنه الأجانب والمستشرقون .

ومهما يكن من الخلاف فى منزلة الغزالى وأثره فى الأمة الإسلامية بالإيجاب أو بالسلب، فإن التاريخ يذكر أن جمهور المسلمين قد عرفوه بأنه (حجة الإسلام) و(مجدد القرن الخامس) و(محيى علوم الدين) .

وإن المعاصرين - مهما اختلفوا فى تقويمه - فهو عندهم جميعا فى الذروة من أعلام الفكر فى الإسلام، وأعلام الفكر فى العالم، وأعلام الباحثين عن الحق .

obeikandl.com

وما كتب عنه فى الشرق والغرب، بالعربية وغيرها، من المسلمين وغير المسلمين شيء يصعب حصره.

وستظل الأقلام تكتب، والمكاتب تنشر، والعالم يقرأ عن الغزالى.

ولن تتوقف الندوات ولا المؤتمرات ولا المهرجانات التى تقام لإحياء ذكرى الغزالى.

رحم الله إمامنا الغزالى، وجزاه عن دينه وأمته خيراً، وآجره على ما تحرى فيه الحق فأخطأه. آمين.

* * *

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

وبعد

فلم يكن فى نيتى - فى هذه المرحلة على الأقل - أن أكتب عن الإمام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه، لا لشىء، إلا لأن الرجل غنى بما كتب عنه فى شتى الاختصاصات، وذلك لتعدد جوانب النبوغ فى شخصيته الفارعة، وتنوع المواهب والقدرات التى آتاه الله إياها، وسعة الآفاق والمجالات التى تناولها علمًا وعملاً ودعوة وتعليمًا.

ومن عادتى ألا أكتب فى الموضوعات التى أشبعت بحثًا، إلا أن يكون عندى شىء يقال، غير ما قاله من سبقنى، تكميلاً لنقص، أو تصحيحًا لمفهوم، أو توضيحًا لغامض، أو تفصيلاً لمجمل، أو جمعًا لمتفرق، أو تقريبًا لبعيد.. أو نحو ذلك مما تصنف له المصنفات. وإلا كان التصنيف تكرارًا

obeikandi.com

محضًا، لا يضيف شيئًا جديدًا إلى دنيا العلم والفكر، ولا يستحق الورق الذى يطبع به.

وليس من شيمتى - ولله الحمد على ذلك - أن أكرر غيرى ولا نفسى فيما أكتب.

من هنا لم أتجه إلى الكتابة عن إمامنا الغزالى، رغم تعرفى عليه منذ عهد مبكر من حياتى، عن طريق كتابين له هما: (إحياء علوم الدين) و(منهاج العابدين).

ولكن الله عز وجل إذا قدر أمرًا هيأ له أسبابه، فقد أرسلت المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (إيسسكو) كتابًا إلى الجامعات فى البلاد الإسلامية، تحثها فيه على الاحتفال بمرور تسعة قرون هجرية على وفاة الإمام الغزالى سنة ٥٠٥هـ.

وكانت جامعة قطر ممن استجاب لهذا النداء الكريم، واقترحت كلية الشريعة أن تعقد بعض الندوات، وتلقى بعض المحاضرات، ويصدر كتاب تذكارى عن الغزالى بهذه المناسبة.

وألفت الجامعة لجنة لإعداد هذا الكتاب، وطلبت من عدد من الأساتذة تناول جوانب من حياة الغزالى، كل فى اختصاصه.

obeikandl.com

وطلبت منى أن أكتب مقدمة مناسبة للكتاب كله، تحمل نظرة عامة لعبقرية الغزالى، وشخصيته الرحبة.

وبدأت أكتب هذه المقدمة، محاولاً أن أجيب فيها عن سؤال أساسى، هو: لماذا سمى المسلمون الغزالى (حجة الإسلام)؟ ولماذا أجمعوا - كما ذكر السيوطى - على اعتباره (مجدد المائة الخامسة)؟ وما الدور المهم الذى قام به حتى تبوأ هذه المكانة فى الثقافة الإسلامية، وفى الحياة الإسلامية؟.

كان فى تقديرى أن أكتب فى ذلك نحو عشر صفحات، أو بضع عشرة صفحة على الأكثر.

فلما شرعت أكتب إذا بالموضوع يتسع أمامى، وإذا الغزالى يفرض نفسه علىّ بقوة، وكأنه كان يعاتبنى من عالم الروح كيف أكتب عنه صفحات معدودة، وأنا الذى تتلمذت عليه، وغرفت من بحره، منذ عهد الصبا؟!

لهذا تركت القلم يكتب ما يسر الله له، وانتقل الأمر من مجرد مقدمة للكتاب التذكارى إلى موضوع كامل يستفتح به الكتاب، بل إنى وجدت البحث قد طال بأكثر مما ينبغى أن ينشر عن موضوع فى كتاب مشترك.. فأخرت جزءاً منه، ونشرته فى (حولية كلية الشريعة).

obeikandl.com

والآن أضم هذا وذاك لأجعل منهما كتاباً عن الغزالي رحمه الله.

وبرغم أنني تتلمذت أول ما تتلمذت على الإمام الغزالي، واستفدت من علمه، ونهلت من معينه، فقد تعلمت منه أيضاً أن الرجال يعرفون بالحق، وليس الحق يعرف بالرجال، وأن كل أحد يؤخذ منه ويرد عليه، وليس في العلم معصوم بعد رسول الله ﷺ.

فلا غرو أن نناقشه أو نخالفه في بعض القضايا، كما يناقش التلميذ أستاذه ويخالفه، وكما خالف هو شيوخه وأئمته واستدرك عليهم، محتفظين له بما ينبغي من إجلال وتقدير يليق بمنزلته في الفكر، وإمامته في الدين، معتقدين أنه كان مخلصاً في طلب الحق، وفي ابتغاء رضوان الله، وإن أخطأ في بعض الأحيان.

ولقد أزعجني في هذا المقام صنفان متقابلان:

١ – صنف يقدس أبا حامد الغزالي، ويرفعه إلى مكانة تكاد تشبه العصمة، ولا يقبل أن ينقد في فكره، أو يخطأ في قول، أو يلام في سلوك، بعد أن ثبتت له الإمامة والولاية، وعرفه الخاص والعام بأنه (حجة الإسلام)!

obeikandi.com

ونسى هؤلاء أن الغزالى بشر يصيب ويخطئ، ووقوع الخطأ منه لا يقدح فى إمامته ولا ولايته، ولا ينقص من قدره فى العلم أو الدين، وهو معذور فيما أخطأ فيه، بل مأجور إن شاء الله؛ لأنه اجتهد وتحرى ما استطاع. وكل عالم مسلم اجتهد فى الوصول إلى الحق لم يحرم من الأجر، سواء كان ذلك فى المسائل العملية الفروعية، أم المسائل النظرية الأصولية، كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

٢ – والصنف الآخر، يتحامل على الغزالى، ويتطاول على مقامه، ولا يعترف بما قدم للعلم والفكر والدين، ويكاد يجرده من كل فضيلة، فمنهم من يحمله تبعة انتشار التصوف المنحرف، وثان يجعل فى رقبته ذيوع الأحاديث الموضوعة والضعيفة، وآخر يحمله مسئولية التخلف الحضارى للأمة الإسلامية كلها!، ومنهم من يجعل له وجهين: وجها للخاصة ووجها للعامة...

والإنصاف يقتضينا أن نقوّم الرجل بمجموع عطائه، ومجموع حسناته ومزاياه، وما أكثرها!.

ولا يليق بنا أن نهدر فضائله الجمة، وعطاءه الضخم، لأمور كثيراً ما يختلف الناس فى تقديرها وتقويمها، حتى ما اعتبر خطئًا صريحًا منها، لا يجعلنا ننسى فضل أبى حامد وقدره.

obeikandi.com

وعيبنا فى كثير من قضايانا - فكرية أو عملية - الانقسام بين طرفى الإفراط والتفريط.

والمنهج السليم هو المنهج الوسط، منهج العدل والاعتدال، فى النظر إلى الأشياء والمواقف والأشخاص والأعمال.

وهو ما حاولت أن أسلكه فى دراستى هذه لشخصية هذا العملاق، الذى ملأ الدنيا، وشغل الناس.

فعسى أن يكون فى هذه الصحائف ما يفيد الدارسين، ويلقى شعاعًا من ضوء على هذه الحياة الحافلة بالعلم والعمل والجهاد الروحى والعملى والبحث عن الحق واليقين.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

يوسف القرضاوى

الدوحة

فى ٩ ربيع الآخر سنة ١٤٠٨هـ

٣٠ / ١١ / ١٩٨٧م

obeikandl.com